

سعيد العلمي

مريم

قصة قصيرة



3^a


Vision Libros

سعيد العلمي

مريم

قصص قصيرة

دار الكرمل للنشر والتوزيع



مريم (مجموعة قصصية)

سعيد العلمي

الطبعة الثالثة – مدريد- فيسيون ليبروس ،Visión Libros 2024

الطبعة الثانية – مدريد- فيسيون ليبروس ،Visión Libros 2007

الطبعة الأولى – عمان- دار الكرمل، 1995.

© Todos los derechos reservados

© All rights reserved

© جميع الحقوق محفوظة، ولا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله أو نسخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف، أو من دار النشر في مدريد.

© Obra: Mariam, colección de relatos.

© Autor: Saïd Alami

1ª edición: 1995, Dar Al Karmel. Amman. Jordania.

2ª edición: 2007. Visión Libros.

3ª edición: 2025. Visión Libros.

ISBN: 978-84-10039-34-6

© Editado por VISION LIBROS www.visionlibros.com

Gestión, promoción y distribución: Grupo Editor Vision Net S.L.

C./ San Ildefonso 17, local, 28012 Madrid. España.

Tlf: 0034 91 3117696 // Email: pedidos@visionnet.es

www.visionnet-libros.com

Disponible en librerías físicas y online.

Queda prohibida, salvo excepción prevista por la ley cualquier forma de reproducción, distribución, comunicación pública o transformación de esta obra sin contar con la autorización de los titulares de la propiedad intelectual. Diríjase a CEDRO (Centro Español de Derechos Reprográficos, www.cedro.es o por teléfono 917021970) si necesita fotocopiar, escanear o utilizar algún fragmento de esta obra. Gracias por comprar una edición autorizada de esta obra y por respetar las leyes del *copyright*.

مقدمة

بقلم: خليل السواحري

قصص سعيد العلمي منتزعة من واقع الحياة ، وربما من تجارب المؤلف الشخصية، لذلك فهي عامرة بالصدق ومتبعة بغنى التجربة وحرارتها.

ولست هنا بصدد تقديم ملخص لهذه القصص، وهو الأمر الذي يفسد على القارئ لذة المتابعة والإكتشاف، ولكنني أود أن أشير إلى بعض المضامين التي قدمها الكاتب في سياق يبدو أحياناً ممعناً في الوضوح (قصة التأشيرة) وأحياناً ممعناً في الإيحاء والرمزية (قصة الأشقر).

فالقصاص التي تناول فيها القاص موضوع الوطن والغربة وهي ثلاث: التأشيرة، شاي أم قهوة، والطريق إلى فارو، لم يكن ثمة مناص من أن تكون واضحة المغزى والتناول، فقضايا الوطن قد لا تحتمل الترميز خاصة عندما تكتوي أصابع كاتبها بنار التجربة والمعاناة، فالحصول على التأشيرة أو جواز السفر

للعودة إلى الوطن كانت وما تزال هي المعاناة الكبرى للشعب الفلسطيني ابتداءً بوثائق السفر منذ 1950 وانتهاءً بعمليات الطرد الجماعية من الكويت عام 1990، وليبيا عام 1995، وما بينهما من عذابات لم يمر بها شعب من شعوب العالم حتى اللحظة.

إن النقد المشوب بالمرارة الذي وجهه، في قصة (شاي أم قهوة)، إلى مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وآلية العمل فيها وما يشوبها من فردية وتسلط وفساد وجهل وغير ذلك، كان مباشراً وغير مباشر، ولكنه صادق كل الصدق، وهو نقد يمكن أن يوجه لكل السفارات العربية مع الأسف، ولكن ما يجوز عربياً لا يصح أن يجوز ثورياً وفلسطينياً، وهذا هو ما حاول الكاتب أن يقوله.

إن نكهة التجربة التي تبدو ذاتية فعلاً لفرط تفاعل الكاتب مع شخصه، واستعماله ضمير المتكلم، نادراً ما تنتهي لمعظم كتاب القصة، وهو ما حققه سعيد العلمي في هذه المجموعة. وبشكل خاص قصص الأشقر ومريم وعزرائيل والغريم، وكلها لقطات من واقع الحياة تنضح بالتجربة والنضوج وبعد النظر والحكمة الهادئة.

كنت أتمنى لو ابتعد الكاتب بلغته عن بعض الصيغ العامية،
ولكن ما العمل ونحن نعيش نوعاً من ازدواجية اللغة التي تكبل
التعبير أحياناً وتوقع السرد وليس الحوار فقط في تراكيب عامية
لا فكاك منها.

وأخيراً فلا بد لي من الإشارة إلى القالب القصصي الذي
اعتمده الكاتب في قصة "شاي أم قهوة" حيث استطاع أن يقدم
من خلال الحوار (دون اللجوء إطلاقاً إلى السرد) مضموناً
قصصياً خالصاً لم يشعر القارئ خلاله بأي خلل قصصي أو
اختلال في السياق أو استغراقاً كلياً في الحوار بحيث يتحول
الشكل الفني إلى "مسرحية" بدلاً من "القصة القصيرة"، وهي
سمة نادراً ما تتحقق لكاتب دون أن تفقد قصته ملامحها
القصصية كلياً أو جزئياً.

لقد كانت هذه القصص عموماً نبضاً من الحياة، حياة
الكاتب أو أصدقائه أو معارفه، ولعمري ماذا تكون القصص غير
ذلك؟.

عمّان 1995

التأشيرة

الصباح أنفاسه رقيقة والسماء زرقاء تحتضن الافق المدردي كأم رؤوم ، وباسر يمي هذا كله ويشعر بوداعة الطبيعة في مطلع هذا النهار من شهر حزيران وقد بدأ يطرق أسماعه وقع خطوات صيف جديد هبت أنفاسه الأولى الدافئة على هذا الحي المتطرف من أحياء مدريد الشمالية. وانه لأمر معتاد في هذه المدينة القشتالية ألا يكون من فصول السنة سوى الصيف والشتاء، وكأن الربيع والخريف قد فرا منها منذ أمد بعيد ازاء سطوة الفصلين الرئيسين، فلا يدخلانها الا خلصة ولفترات متقطعة وقصيرة. كان ياسر يقبل على الحياة في تلك الساعة جذلان باستعراض الطبيعة لمحاسنها المتجددة بعد أن سكنت الرياح وانقطع المطر.

وحقيقة الامر أن حالة الجو لم تكن دافعه الوحيد للشعور بالبهجة، فلقد كان لديه سبب وجيه للغاية ييث النشوة في قلبه الشاب ويدعوه الى التفاؤل. فبانتهاء السنة الدراسية هناك في بيته هرج ومرج استعدادا لسفر ابنته لوطنه العربي لتقضي الاجازة الصيفية في كنف عائلتها هناك. وكانت مهمته في ذلك الصباح الحصول لها على تأشيرة سفر تتيح لها دخول البلد الذي تقطنه عائلته منذ سنوات طويلة.

كم طال انتظاره لهذا اليوم!. منذ بداية العام الدراسي وهو يعد

الأمم المتبقية لسفرها معلقا على هذه الرحلة آماله في تعليم ابنته لغة آبائها وأجدادها. وانه ليعتقد في قرارة نفسه أن الغربة التي كتبت عليه حتى الآن انما هي مظلمة لابنته منذ أن ولدت.

ولذا فانه كان يترهب المناسبات التي تتيح لابنته الاحتكاك بعائلته كي ينمي فيها أواصر الارتباط والانتماء لوطن منكوب هو في أشد الحاجة لأبنائه المنتشرين في أصقاع الأرض. وبالفعل، فها هي في سنتها الثامنة، وهي وليدة مدريد، تشعر بالغربة أسوة بأبيها وتحرق شوقا للقاء أهلها، بل وتحدث عن فلسطين، وهي التي لم تتنفس قط هواءها ولا شربت من مائها، وكأنها قد غادرتها لتوها. كل ذلك بفضل تربية منزلية متيقظة، وأتراب من الأطفال الاسبان في المدرسة وخارجها يصبر بعضهم على تذكيرها بجذورها كلما سخرُوا من أصلها ومن اسمها الفريد في المدرسة وفي ساحة اللعب أمام البيت، وبفضل مدرس اسباني واحد يحقد على العرب ويشها حقه هذا بكلام مغلف تارة وصريح تارة أخرى، مولدا لديها المزيد من مشاعر الانتماء لوطن بعيد.

وبذل ياسر قصارى جهده في تعليم ابنته شيئا من اللغة العربية وتحفيظها بعض السور القرآنية القصيرة وتلقينها حفنة من المعلومات البسيطة عن هذا كله مما يستطيع دماغها الصغير استيعابه بدون مشقة. ومع ذلك فهو مقتنع بأن نتيجة مجهوداته مازالت ضئيلة، فالمهمة جسيمة وهو ليس سوى مقرب عربي آخر... من مئات الآلاف من المغتربين العرب المقيمين في أوروبا والذين لا يلتفت اليهم مسؤول واحد على ضفتي اغترابهم، لا الضفة التي رسوا عليها ولا الضفة التي

غادروها.

كل هذه الافكار كانت كثيرة التردد على ذهن ياسر. انه يشعر كما لو كان مكبلا بالسلاسل فلا حيلة له سوى أن يظل مغتربا. فلسطين مفقودة منذ شهدت عيناه النور لأول مرة، وباقي بلدان «الوطن» الكبير موصدة أبوابها في وجهه، أسوة بعشرات من رفاقه ممن حصلوا العلم في هذه الديار.

وبتردد هذه الافكار في خلده، بينما كان يقود سيارته عبر الشوارع المزدحمة بالعربات، أخذ حواره الصباحي يتلاشى ووجد نفسه يضرب المقود بعصبية مشحونة بالمرارة لينفخ بعضا من غليظه المتراكم في أعماقه سنة بعد سنة. وأصابه اكتئاب مفاجئ عندما تساءل للمرة الألف في الأيام الأخيرة عما اذا كانت السفارة العربية التي كان يقصدها ستمنح ابنته تأشيرة الدخول التي تسمح لها بالسفر لزيارة الأهل. وبدون شعور أدار مفتاح جهاز الكاسيت فانسابت منه موسيقى عربية مسجلة على شريط يلزمه في سيارته منذ أيام. أراد بالموسيقى أن يطرد عن قلبه الهموم فقد سئم هذه الأفكار التي تفرع دماغه منذ سنين بلا هوادة ولارحمة . كان قد أدرك بالتجربة الطويلة أن أفضل السبل هو الانتظار، فرب طارئٌ يجتد في بلاد العرب ورب أمر يتغير في أرجائه الفسيحة ويجعل السفر اليه ، وبين أقطاره، وبقدرة قادر ، أمر طبيعى يخلو من التعجيز، تماما كما كان في الماضي ، قبل أن يفتن العرب باختراع غربي هو جواز السفر وقبل أن يؤلهه حكامهم ربا جديدا يعبد كما آله بنو اسرائيل العجل. الموسيقى المناسبة من جهاز الكاسيت تعيده الى الوطن بقوة...

بشراسة... صوت المغنية يألفه منذ نعومة أظفاره. يا للسعادة أن تزور سميرة جددا وجدتها وأن تعيش ولو لشهور قليلة على أرض عربية... أرضا تسمع فيها صوت المؤذن وهو ينادي الى الصلاة... أرض لا يكون كل ما فيها ضد هويتها ودينها كما هو الحال عليه هنا. وعادت الغبطة تغمر قلبه من جديد وهو ينحدر بسيارته عبر شارع سيرانو. وأدار مفتاح الجهاز ليرتفع صوت مغنيته المفضلة ثم رفع عقيرته مشاركا اياها الغناء، والعربة تطوي المسافة المتبقية صوب السفارة العربية.

وصل ياسر الى تلك المنطقة المزدحمة ذات المباني الحديثة التي تقع فيها بعض السفارات العربية. وكاد أن يعجز عن العثور عن مكان يوقف فيه سيارته، وتجول بها طويلا عبر شوارع اختنقت فيها حركة المرور بحثا عن بغيته. وفي بحثه وتجوّاله مر أمام سفارة عربية أخرى تحيط بها بيوت الدعارة من كل جانب فترددت على شفّتيه بصوت خافت وبدون سابق تفكير أو اصرار «الطيور على أشكالها تقع». وأخيرا عثر على مكان لسيارته وحث الخطى نحو مبنى السفارة المنشودة وقد استحوذ عليه من جديد شعور مرير بالتشاؤم تجاه ما ينتظره خلف بابها. لم يعد يعي رقة النسائم التي كانت تداعب شعره ولا زرقة السماء وما تخللها من غيوم حلقت فوق رأسه بدعة، ولا زحف السيارات التي كان يمر بينها بخفة كلما اضطر الى ذلك. كان القلق المشحون بالخوف قد ملك عليه تفكيره. فهل ياترى يرفضون منح ابنته تأشيرة الدخول؟!

وتوجه الى بوابة العمارة التي تضم مكاتب السفارة ثم حث

الخطى نحو المصعد. وفي وحدته بين جدران الأربعة تنبه الى نفسه وهو يهز رأسه بقوة للتنفيس عما كان يعتل في صدره. انه يكره طرق باب أية سفارة عربية، فمعظمها لا ترحب ولا حتى بمواطنيها فما بالك بغيرهم من العرب. كلما اضطر الى التوجه لسفارة عربية عرف أن الله يريد معاقبته في ذلك اليوم فيجعل له سببا يقتاده اليها. وهذا السبب اما أن يكون مهنيا بحكم عمله أو لطلب تأشيرة أو لتجديد جواز السفر. وكم من مرة تساءل مع أصدقائه العرب عن السر الكامن وراء هذه العجرفة التي يجدها معظم المواطنين العرب في سفارات بلادهم أنهما ذهبوا في أرجاء العالم.

توقف المصعد في الطابق الثاني عشر واندفع عبر ممر مفروش بالسجاد اصطف على جانبه مرابا عملاقة ثبتت فوق جدران رخامية. وكان اندفاعه عبر الممر اندفاع من يسلم نفسه للجلاد حتى يفعل به ما يشاء، وبسرعة. فيريحه من دقائق قلبه التي غدت صاحبة وموجعة. لقد عمل باصرار طيلة الطريق، منذ أن غادر بيته متوجها الى السفارة، على أن يعد عن مخيلته علامة السؤال الكبيرة، التي هي أكبر منه ومن مشاعره الوطنية برمتها. ولكنه لم يستطع. والآن وقد أصبح داخل المبنى، لابل في الطابق الثاني عشر، لم يعد قادرا على مواصلة محاولته الهزيمة تلك، فكاد أن يصرخ ملء رئيته بسؤاله الكبير ذاك: «ترى هل يمنحون سميرة تأشيرة السفر؟». سؤال رهيب يظل مسلولا فوق رأس كل من سولت له نفسه طلب تأشيرة دخول من سفارة عربية... اللهم الا اذا كان طالب التأشيرة غير مشبوه بانتماؤه لبلد عربي. فدخول اللجنة معروفة شروطه بالنسبة للعربي، مسلما كان أم مسيحيا... أما دخول العربي لبلد عربي فيعتمد على ظروف

لاحصر لها... ولا يعلمها الا الله، اضافة الى السفير.

وازاء ذعره من سيف السؤال الكبير المسلول فوق رأسه وجد ياسر نفسه يستل بدوره سيف المنطق في محاولة يائسة للتخلص من الضيق الشديد الذي كان يمزج فوقه كما الطود، فكان يخاطب نفسه بالحاح: «كيف لا يعطونها التأشيرة وهي لم تتجاوز الثماني سنوات!.. انهم يرفضون منح التأشيرة للكبار لسبب أو لآخر... أما للصغار فهذا غير معقول. هل يعقل أن يحرموها من زيارة أهلها وبلد عربي هو جزء من وطنها الكبير!». ويجد السيف المسلول يهتز فوق رأسه من جديد منذرا ومتوعدا.. أو تراه من الطبيعي أم من المنطقي أن يمنع الكبار من زيارة أهاليهم ووطنهم الكبير!... مهما كانت حاجتهم ملحة لهذه الزيارة!... أليس هو العار بعينه أن تضطر عائلة عربية الى اللجوء الى بلد أجنبي كحل وحيد لتحقيق اللقاء مؤقتا أو للم الشمل!. وتذكر ياسر بمرارة وهو يقف بباب السفارة صديقه جميل الذي رفضت نفس هذه السفارة منحه تأشيرة دخول لبلدها من أجل زيارة امه وهي تحتضر. ولم ينفعه تسليم موظف السفارة البرقية التي كان قد تلقاها من أخيه في نفس ذلك اليوم يحثه فيها على السفر الفوري ليتمكن من وداع أمه قبل رحيلها . ولم يتحرك ضمير واحد في أروقة السفارة أو في مكاتبها الفخمة. وتوسل جميل للموظف أن يسمح له بمقابلة السفير، ورد عليه الموظف بعد دقائق بأن السفير مشغول ولا يستطيع استقباله. وتذكر ياسر كيف روى له جميل والدمع في عينيه أنه غادر السفارة وهو يبكي كالأطفال. وتوفيت والدته جميل ولم يتمكن ابنها ولا حتى من تشييع جنازتها لأن مسؤولين ناقصي العقول ومقتولي الضمائر وعديمي القيم قرروا أن وفاة الوالدة لا تستحق كل ذلك

الاهتمام من طرف الابن المغترب. وجميل اليوم، وقد مرت سنتان على رحيل والدته، يصبح ويمسي لاعنا سفارات صماء وحكومات عمياء قائمة على مصير أمة خرساء.

باستعادة هذه الحادثة، شعر ياسر بغصة مريرة تحتاج حلقه. وفكر أن ما يهمه الآن هو تأشيرة السفر لابنته وأنه من الأجدى طرد كل هذه الافكار السلبية التي تنغص عليه صباحه هذا بعد أن بدا له في مطلعته مثاليا ومشرقا. ما فائدة كل هذا التفكير الذي طالما صدع رأسه! المهم أن تزور سميرة أهلها، وقد أعدت لها جدتها مدرسة لتعلمها العربية. من غير المعقول أن يحرموا طفلة من أبسط حقوقها. لكن السؤال الكبير تردد مجددا في أعماقه واهتز فوق رأسه مرة أخرى ذلك السيف الرهيب. واسودت الدنيا في عينيه وهو يتحقق من عدم جدوى المنطق في الوقت الذي كان يضغط فيه على جرس السفارة وينظر بتأدب مصطنع صوب العين التلفزيونية التي كانت تدرس ملامحه بصفته قد أصبح مشبوها لحظة وقوفه ببابها.

وحضرته لحظة انفتاح الباب مناظر من أفلام دراكولا والابواب التي تنفتح ببطء على مجهول مشحون بالرعب وبصرير تنخلع له القلوب. وخطا خطوة داخل السفارة فانغلق الباب خلفه تلقائيا وفكر للحظة أنه أصبح تحت سيادة الدولة صاحبة السفارة وأن الديمقراطية برمتها وحقوق الانسان وأشباه الانسان ظلت على الطرف الآخر من الباب وجاءه ضوضاؤها عبر النوافذ فشعر باشتياق حقيقي للشوارع التي ألف فيها الحرية منذ سنوات.

تقدم نحوه شرطي من مواطني السفارة مصوبا نحوه عينين حادتين

وسأله بفظاظة عن مراده في الوقت الذي لمح فيه ياسر شرطي آخر يرمقه، ربما بحنق، من مقعد وثير. وقال له الشرطي الأول أنه سيفتشه فأذعن ياسر للواقع فقد اعتاد مثل هذه «الحركات» في سفارات عربية كثيرة. ولم يكن ذلك التفتيش سوى أول متاعب ياسر في السفارة.



بعد نصف ساعة من دخوله السفارة غادر ياسر المبنى الشاهق وانخرط في ازدحام الأرصفة يمشي على غير هدى، واجما ناقما يأكل الغيظ قلبه. كانت سماء مدريد قد تلبدت بالغيوم من جديد وكانت طلائع الصيف تقهقرت أمام كرة الرياح الباردة. واستشعر الرجل بعض الراحة في النسمات التي كانت تهب عليه، وذرفت عيناه دمعين وهو يفكر فيما عساه سيقول لابنته الصغيرة، وكيف تراه سيشرح لها أنه لن يكون هناك ثمة رحلة لزيارة أهلها. كيف ينتزع بنفسه الفرحة من قلبها بعد أن حدثها عن سفرها المنتظر طيلة الشهور الأخيرة! أترأه يستطيع أن يقول لها أن سلطات دولة عربية رفضت السماح لها بالسفر لمجرد أنها عربية؟ أي تبرير يقدمه لها فيقتنع به عقلها الصغير؟. أيقول لها أن حكومة عربية تخشى على استقرارها واستمرارها من طفلة في الثامنة من عمرها؟. لربما، رغم طفولتها، سترد عليه، كعادتها في اجاباتها التي تنم عن ذكائها الفطري، قائلة «يا لها من حكومات يا والدي... الهذه الدرجة هي مهزوزة وبدون جذور؟!». لقد رأى بعينه في السفارة معاملات لمواطنين اسبان لمنحهم تأشيرات السفر ولما سأل الموظف المسؤول عن ذلك، بعد أن قال له هذا الأخير أن هناك أوامر من وزارة خارجية بعدم منح تأشيرات

دخول لأحد، رد عليه الموظف بوقاحة: «ألا ترى أنها جوازات سفر اسبانية؟». ولكن جميل كان يحمل جواز سفر اسباني عندما أراد السفر لوداع أمه ولم يعطوه التأشيرة لمجرد أنه عربي مثلهم. واغرورقت عينا ياسر بالدموع من جديد وهو يردد بصوت مسموع كله أسي ونقمة. «يالنا من أمة تعيسة وجاهلة».

وشعر بمرارة الوحدة وسط ذلك الخضم من المارة والسيارات. وبغته، سمع أحدهم يهتف به بالاسبانية مازحا: «ألا انكم لا تعرفون معنى الصداقة يامعشر العرب...» أهكذا تنقطع عني يا رجل كل هذه المدة؟!.

ورفع ياسر وجهه الى محدثه المباغت فعرف فيه أحد زملاء دراسته الجامعية ممن لم يعد لمقابلتهم منذ تخرجه قبل سنوات. وسر ياسر باللقاء وطرأت على وجهه ابتسامة اذ أخذه صاحبه بالاحضان مربتاً على ظهره بقوة كما هي العادة الاسبانية عند لقيا الاصدقاء. وانفجرت أسارير ياسر، فكم كان بحاجة في تلك اللحظات الى التخلص من المرارة الشديدة التي بثتها في قلبه السفارة العربية . ورد ياسر على صديقه وهما بعد في فرحة اللقاء: «معك حق يا فيرناندو. ان معشرنا لا يعرفون ولاحتى معنى الأخوة»، فما بالك بالصداقة. هيا بنا .

1984

الطريق إلى فارو

الطريق من لشبونة إلى فارو طويلة نوعاً ما، تجتازها الحافلة بخمس ساعات. والساعات التي يقضيها فارس على متن حافلة أو قطار هي من أمتع أوقاته، فليس هناك ما يتعين عمله أثناء السفر اللهم إلا القراءة، أو الإسترخاء وتأمل المناظر الشاردة عبر النافذة، وما يتخللها من وجود إنساني يحول دون تحوّلها إلى مجرد صور عابرة. وهناك أيضاً تأمل الركاب في عالم الحافلة الصغير، والعودة إلى ذكريات الوطن. والواقع أن المناظر في هذا البلد بطبيعتها وأناسها، وتأمل ركاب الحافلة، هما في كل أسفاره مفتاحه غير الإرادي إلى ذكرى الوطن والأهل، إذ يتفرغ لتصور وجوه زوجته وأطفاله الأربعة، وكثيراً ما يتمكن من رؤيتها واضحة جلية وهي تشع نوراً عبر طبقات الذاكرة.

سنتان مضتا منذ أن أبعدَ فارس عن بيته وأرضه ووطنه. سنتان مرّتا كان لهما طعم العلقم الذي ما زال ناشباً في حلقه. أربعة وعشرون شهراً بالتمام والكمال انقضت منذ أن أخرجته الإسرائيليون من المعتقل بعد أن قضى فيه سنوات من الحبس الإداري، دونما تهمة ولا محاكمة. نعم، أخرجته الإسرائيليون من معتقله وأعطوه مهلة أربعة عشر يوماً لمغادرة بلده، أو العودة إلى سجنهم.

وانطلقت به الحافلة من محطة الباصات في المدينة العتيقة، ذات